

البنية النصية ودلالاتها في معلقة امرئ القيس

The Textual Structure and Its Significance in Imru' Al-Qays's Mu'allaqah

موساوي عمار*
1 جامعة عين تموشنت – الجزائر
moussaouiomar2013@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/03/28

تاريخ القبول: 2023/02/06

تاريخ الإرسال: 2022/09/30

ملخص:

يروم هذا البحث الوقوف على البنية النصية ودلالاتها في معلقة امرئ القيس، وذلك من خلال تتبع البناء النصي وإمكانية تحقيقه داخل المعلقة انطلاقا من تصور إشكالية جوهريّة مفادها: إلى أي مدى نجح الدرس اللساني النصي في الكشف عن البنية النصية داخل القصيدة الجاهلية عموما، ومعلقة امرئ القيس خصوصا؟
الكلمات المفتاحية: النصية، الاتساق التواصل، الانسجام السياقي، الدلالة، معلقة امرئ القيس.

ABSTRACT

This research aims to situate itself on the textual structure and its implications in the Mu'allaqah of Imru' al-Qays, by tracing the textuality and the possibility of its realization within the Mu'allaqah text, starting from a problem which says: To what extent did the lesson in textual linguistics succeed in revealing the textual structure of the pre-Islamic poem in general, and the suspense of Imru' al-Qays in particular?.

Keywords: : textual, communicative coherence, contextual Cohésion, significance, Mu'allaqah of Imru' al-Qays.

-01- مقدمة:

إنّ توجيه عناية البحث للحديث عن البنية النصية في الشعر الجاهلي كثيرا ما يضع الباحث أمام قضية الوحدة في القصيدة الجاهلية، التي ظلت لأمد طويل من القضايا النقدية المهمة التي شغلت النقاد القدامى والمحدثين سواء، بعدما استفاد جدل كبير بين هؤلاء، وخاصة بين المحدثين منهم، فتأرجح مصطلح الوحدة واصطدم بنظريات غريبة، ما طرح إشكالية في تسمية المصطلح نفسه، كان أن أفرز مصطلحات مختلفة أحيانا، ومتباينة أشدّ التباين أحيانا أخرى، فاتجه الحديث صوب الوحدة الفنية والعضوية، والموضوعية والمنطقية، والنفسية والبلاغية... فاختلّفت التسميات وتعددت معها الآراء وتشاكلت، حتى حلت الدراسات النصية الحديثة التي عبّرت عن جوانب مهمة في تقفي مجالات الترابطات النحوية والدلالية، حتى

داخل تلك الأبنية التي تبدو مهلهلة، كما في القصيدة الجاهلية التي لم يع كثير من دارسيها أنها بنية فنية تتوالد من الداخل؛ من خلال تأثيرات التفاعلات النصية التي تتجاوز المركزية الأولى للبيت الشعري نحو القصيدة النص، التي كما تستمد وحدتها من سياقات خارجية، تستمد من أبنية فنية داخلية متشابكة، تتكشف اتباعاً متى تمكّن الباحث من تحديد بنيتها العميقة، التي تدين بتفرعاتها لأبنية جزئية تصنع دلالاتها.

ونحن من خلال هذه الورقة البحثية نبتغي رصد أهم الأبنية النصية ودلالاتها في معلقة امرئ القيس، وتتبع مجالات تطبيقاتها الممكنة، بما يتيح أجوبة عن الإشكالات التالية: إلى أي مدى نجح درس اللساني النصي في الكشف عن بنية نصية في محاورته للنص الشعري الجاهلي؟ وهل ثمة مجال للحديث عن بنية نصية خاصة لمعلقة امرئ القيس تضع الدارس أمام وحدة القصيدة النص؟

02- دينامية النص بين المصطلح والمعيار:

يقتضي ولوج عالم النص للكشف عن كينوناته الدالة جهداً كبيراً للتنقيب عن الآثار والأصداء الموجودة في ذات النص، وتحريرها من واقع التكثيف نحو التكيف، الذي يشد العلاقات النصية لقوام نص «أنتجته قريحة صاحبه في صورة لغوية لديها القدرة على التوصيل...بغية الوصول إلى درجة أعلى من التأثير في المتلقي، وتحويل الفكر إلى فعل، والسكون إلى حركة، والصمت إلى كلام، والافتقار إلى دهشة، والغموض إلى بيان ووضوح»⁽¹⁾، ولأن النص هو ثمرة الدراسة النصية في هذه الورقة البحثية، وجب علينا أن نقف على بعض تعريفاته من خلال بعض كتب علم اللغة النصي، فهو عند اللغوي الألماني فولفجانج «النسيج أو أسياج مضفرة من الفعل الثلاثي (textere) بمعنى نسج أو ضفر، وأمثله الرسالة، الرواية، المقالة العلمية»⁽²⁾، وهو في تصور دي بوجراند نظام فعال وحقل لتجمع كثير الوظائف من خلال عمليات قوامها الحكم والانتفاء باعتبارهما يتوسطان عناصر النظام الافتراضي الذي يسم النص بخاصية التفعيل، التي تجعله يتجاوز الجملة فيقع دونها أو قبلها، وقد يقع النص كلمة واحدة أو أكثر، وقد يأتلف من عناصر ليس لها ما للجملة من شروط كعلامات الطرق والاعلانات وغيرها⁽³⁾، وجوهر ذلك مرهون بوجود نظام افتراضي سابق، يفرض من خلاله الناص قواعده أفقية يضمنها علم النحو من خلال سبك عناصر اللغة وربطها ببعض، وقواعد رأسية تلحم هذه العلاقات بما يتلائم والمعنى.

انصرفت تعريفات النص عند اللغويين العرب نحو الظهور والإبانة فيقال: «نصبت الحديث، أنصته نصاً، إذا أظهرته، ونصبت الحديث إذا عزوته إلى محدثك»⁽⁴⁾، ويقال «نص الشيء رفعه وأظهره، وفلان استقصى مسأله عن الشيء حتى استخرج ما عنده، ونص الحديث ينصه نصاً، إذا رفعه ونص كل شيء منتهاه»⁽⁵⁾، ونص المتاع جعل بعضه على بعض، وتناص القوم ازدحموا⁽⁶⁾، وارتبط النص عند الأصوليين بإنشاء الدلالة والمعنى، لذلك وجدناهم يطلقون عليه مصطلحات تتلاءم ودرجة وضوح المعنى، مثل عبارة لا اجتهد خارج النص، واجتهدوا في تقسيم النص حسب الوضوح إلى: ظاهر ومفسر ومُحكّم، وحسب

الغموض إلى: مُشكّل، وخفي، ومتشابه⁽⁷⁾، ومن جملة ما يمكن أن نطمئن له أنّ النصّ في تعريفات اللغويين والأصوليين اشتمل على معاني: الرفع، والإظهار، وضّم الشيء، وبلوغ الشيء منتهاه، فكان الرّفْع منوطاً متعلقاً بشخص المتلقي، وضّم الشيء مرتبطاً بطبيعة العلاقات بين الجمل والتراكيب وهي مرتبطة بالنص، وبلوغ الشيء منتهاه مرتبطاً بكيونة النصّ الممتد باعتباره أكبر وحدة لغوية يمكن الوصول إليها⁽⁸⁾.

وقد تناولت الدراسات التراثية العربية النصّ بمفهومه اللغوي أكثر، فوجد الدّرس العربي الحديث صعوبة لتقصي مفهوم اصطلاحي جامع يقابله، فاتجهت الدراسات صوب الدرس الغربي علّها تجد مبتغاهما، مما أدى إلى بعثرة وتجاذب داخل الدرس العربي الحديث، ويؤكّد عبد المالك مرتاض أنّ «النّقاد الأقدمون لم يستخدموا في لغتهم النصّ ولا النّسج أيضاً، فلما جاء المحدثون يبحثون في هذا الأمر، انصرفوا أو هامهم إلى مصطلحات الأصوليين يغترفون منها من الألفاظ التي نصطنعها، لا دلالة لها في مفهوم الاشتقاق ووضع اللغة، ولكنها تأخذ دلالة تقوم على المواضعة بين النّاس قبل أي شيء آخر»⁽⁹⁾، ويرجع الأمر من وجهة مرتاض لتقصير الدراسات العربية الحديثة المنبهرة بالدرس الغربي إدراك أنّ النصّ في العربية في وضع اشتقاقه كما ورد في الاستعمالات المعجمية القديمة، يُرادُ به النّسج، أمر وعاء الدرس الغربي الذي أخذ النصّ مباشرة من المادة نفسها (text) واشتقّه من لغته اللاتينية، فكان أكثر ملائمة للدلالة على المعنى وحركته المادية، شأن نّسج حرفٍ بجوار حرفٍ، ولفظٍ بجانب لفظٍ، وجملةٍ بحداء جملةٍ، على حين أنّ الدرس العربي الحديث التمس به منطق الأصوليين والفقهاء، في الوقت الذي كان عليه أن يشتقه من أصل مادته الأولى (النّسج) كونه الأنسب إطلاقاً على النصّ والأقرب للاشتقاق والأنسب للوضع والاصطلاح⁽¹⁰⁾.

ومما لا شك فيه أنّ النصّ عرف دينامية حركية تلاهمت وتعدّد تعريفاته الاصطلاحية المتباينة تباين اتجاهاته ومذاهبه، فلم يرسّ على تعريف شامل عند علماء اللسانيات، كونه علم متداخل الاختصاصات، يقوم بتقصي النصوص في ذاتها، وقواعدها ووظائفها، وعلاقاتها بغيرها، وتأثيراتها بسابقاتها ولاحقاتها، فكان النصّ وليد تجانس في التشاكل والتماثل والانسجام بين مختلف المستويات التكوينية والصرفية والنحوية والصوتية والدلالية للنص⁽¹¹⁾؛ ولأنّ إدراك هذه العوالم مجتمعة فيه من الصعوبة المحمولة على تقصيرٍ مهما بلغ البحث أقصاه، لذلك احتلت النصّية مكاناً مهماً في البحث اللساني، بعدما تبيّن دورها في تحديد كفايات ترابط وانسجام النصوص، وعلاقة الأبنية اللغوية المشكلة لنسيج النصّ، والمؤدية إلى فرض نظام التماسك والانسجام من خلال تأملات المتلقي في النصّ المنجز⁽¹²⁾، فانفتحت على علوم كثيرة ساهمت بالقدر الذي يضمن تشكيل مناحي متعددة ومتباينة لإثراء سمات النصّية، فكان النصّ مركز تجاذب الأبحاث والدراسات، وقد استقطب اهتمام كثير الباحثين ضمن معركة البحث اللغوي اللساني.

وقد يُخَيَّل للباحث في مجال النصية منذ الوهلة الأولى أنَّ بإمكانه الخوض في استقصاء معالم النصية، معتمداً على ما أفرزه الدرس التنظيري ولو بجهد ضئيل، لكن سرعان ما يكتشف خلاف ذلك، وخاصة أنَّ معظم طرق ومجالات البحث النصي تُقَرُّ بصعوبته، إذ ليس ثمة استقرار حول مفاهيمه وتصوراتهِ⁽¹³⁾، ما جعل البحث فيه يتخذ أشكالاً عديدة، ففي الوقت الذي عمد فيه اتجاه لتبني منحى علم اللغة الوصفي، اتجه تيار آخر صوب علم اللغة الوظيفي، للقول بملاءمته لتقصي النصية، وعمد آخر للقول بفاعلية علم اللغة التركيبي أو البنائي للكشف عن أسرارها، وفي ظل هذا التشعب صُعِبَ تحديد فروع هذا العلم الجديد، ناهيك عن التجاذب المصطلحي لمفهوم النص نفسه، والذي حال دون استعاب علاماته الفارقة⁽¹⁴⁾.

ولتجاوز ذلك يقترح البحيري تصورين كبيرين للنص، أحدهما إستيتيقي جمالي ساكن، والآخر ديناميكي متحرك⁽¹⁵⁾، حيث توجب السكونية متابعة النص في علاقاته الأفقية والعمودية الرأسية، من خلال البحث عن امتدادات الأبنية خلال عملية إنتاجه، ومدى ملاءمتها للفهم والدلالة، ما يجعل الباحث أمام التحليل البنيوي الذي يروم التقاط العناصر الفاعلة في نظام العلاقات التركيبية بغية تفسير وتقويض السكونية، فيما يقوم الجانب الرأسي العمودي على امكانية قراءة النص من منظور أسلوبى وبنيوي في آن واحد، يبحث فيه الأول عن تكوينات النص الصوتية، ووحداته الدلالية، فيما يغوص الثاني للكشف عن علاقة المستويات فيما بينها، وإن في نجاعة التصورين السابقين ما يتيح للنص تخطي الامتداد الأفقي نحو أبعاد دلالية وإشارية، وإحالية وإيحائية، تكون زادا للتحليل والتفسير، بما يتوافق ومستويات الفراء، وأحوالهم النفسية، وأشكال التواصل ودرجات الفهم والاستعاب، وطرق التذكر والاستعادة، وإمكانات التأليف والترابط الذهني.

وإن كان علم النص يدين بصلة كبيرة لأعمال زليج هاريس (z.Harris)، كونها شكلت البدايات الفعلية لتأصيل هذا العلم، إلاَّ أنه ثمة دراسات موازية أبانت عن هذا العلم نتيجة احتوائها على بعض الأفكار النصية الجوهرية، لكنها بدت متناثرة ما صَعَبَ من تتبُّعها بالوجه الذي يتيحه ذلك، أما هاريس فقد سعى لنقل المناهج التركيبية في التجزئة والتصنيف، وبناء أقسام التماثل إلى النصوص، فنتبَّع تتابعات النص المتحققة في تحويلات شارحة ومفسرة، حتى عُذَّ أول لسانی حديث يعتبر الخطاب الموضوع الأول للدرس اللساني، من خلال نشره لدراستين تحت عنوان تحليل الخطاب (Discour Analysis)⁽¹⁶⁾، وإن ما يُثبَّت عدم الاستقرار على نظرية موحدة لدراسة النص، ذاك النقد الموجه من روبرت ألان دي بوجراند (Robert.Alain.de Baugrand). وفلجانج أورلخ دريسلار (Wolfgang Dresslar.Ulrich). إلى المحاولات السابقة كونها لم تُقدم أي معايير حاسمة للفصل بين النصوص واللانصوص، ووصفا محاولات الألمان (هانس ريزرن وفولفرام كوك، وبيتر هارتمان، ويانوس بتهوفي، وتوين قندايك، ويانس إيغه) أنها لا تحتكم إلى معايير صارمة للحكم على حسن سبك النص⁽¹⁷⁾، ويستفيد دي بوجراند ودريسلار من هذه الرؤى والتجاذبات ليتخذاها سبيلا لوضع معايير نصية للفصل بين النص واللانص، والتي سنعتمد على بعض

منها في إبراز معالم النصية داخل المعلقة، ونحن لا نقرُّ أن هذه المعايير هي الأنسب لمتابعة نصية المعلقة، لكنها على الأقل الأكثر إلماما بكثير التجارب الأخرى، ناهيك عن حذو دراسات عربية كثيرة*(18) منطبق تطبيقاتها.

ويقترح دي بوجراند معايير للنصية باعتبارها أساسا مشروعا لإيجاد النصوص واستعمالها وهي(19):

- **السبك: (Cohésion)** والذي تتحقق بواسطته الترابطات الرّصيفية، من خلال الروابط والعلاقات النحوية بين الجمل، كالتضام والتكرار، والألفاظ الكنائية، والأدوات الإحالية...

- **الالتحام (Coherence)** : ويروم البحث عن العلاقات التي تنشأ بها عناصر معرفة الترابط المفهومي أو الدلالي، من خلال اشتغالها على الوسائل السببية، والمنطقية والأحداث الموقفية، وتفاعلها مع الخبرات السابقة للعالم الخارجي.

- **القصد (Intentionality)** وهو يتضمن موقف منشئ النص، من خلال تجميع صور اللغة لقصد نص يتمتع بالسبك والالتحام.

- **القبول: (Acceptability)** ومن خلاله يتم الكشف عن موقف مُستقبل النص، والذي قد يتأرجح بين القبول والتغاضي (Tolerance) في حالة إرتباك المواقف اتجاه النص.

- **رعاية الموقف أو الموقفية (Situationality)** وهي تتعلق بمجموع العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، ويأتي النص في صورة عمل يُراقب الموقف وقد يُغيره.

- **التناسق (Intertextuality)** وهو منوط بتحديد مجموع العلاقات بين نص ونصوص أخرى مرتبطة به، ووقعت في حدود تجربة سابقة سواء بواسطة أو بغير واسطة.

- **الإعلامية (Informativity)** وهي العامل المؤثر في الحكم على الوقائع النصية، فكل نص إعلامية صغرى.

استخلص دي بوجراند هذه المعايير السبع من كثير التجارب النصية التي اشتغلت على عالم النص، فجمعها بما يمكن أن يضمن الإحاطة بالنص ومستعمليه وسياقه، وفي ذلك يؤكد: أن هذه المعايير لا يمكن أن تُفهم بمعزل عن أمور أربعة هي: (اللغة، والعقل، والمجتمع، والإجراء) وقد تتحقق النصية بالمعايير السبعة في النص فيؤسم بالنصية، إلا أن الاختلاف بين هذه النصوص راجع لطبيعة الوظيفة التنظيمية، التي تُوجب معايير تصميم للنص تأتلف من كفاءة النص من حيث تحقيق درجة الاتصال، وتأثير النص على مُستقبله، وكذا ملاءمة النص في إحداث تناغم بين الموقف الاتصالي ومراعاة المعايير النصية(20)، ونحن فيما يلي نولي الاهتمام لتتبع معياري السبك والالتحام المتعلقين بالنص، ومدى نجاعة تحققهما داخل معلقة امرئ القيس، دون أن يثنينا ذلك من الإشارة للعناصر الأخرى كلما سمح المقام لذلك، وقبل ذلك وتجنباً لفوضى المصطلحات المتداخلة نوّد أن نقابل مصطلح السبك بالاتساق، ومصطلح الالتحام بالانسجام، بما يتوافق وتوجه كثير الدراسات التي اعتمدت مصطلح الاتساق والانسجام، ودون أن يتعارض مع مدلول المُصطلحين في التطبيق والاستعمال.

03- الكفاءة النصية بين الاتساق التواصلي والانسجام السياقي:

تقوم النظرية النصية على توليف جزئيات ترتبط ببعضها ارتباطاً وثيقاً، فتنتهي غالباً إلى أنواع مختلفة تُعدُّ أساساً لبناء النص، لذلك اقترح سعيد حسن البحيري ثلاث نظريات⁽²¹⁾ تتماشى والطبيعة البنائية للتشكيل النصي هي:

أولاً – نظرية التكوين النصي المتوالي: وتُعنى بوصف المبادئ التي تربط الوحدات اللغوية، كالجمل فتصنع ما يسمى بجودة السبك المتوالي.

ثانياً – نظرية تأليف النص: وتُعنى بنسج خطة أولية للنص تتوخى جودة تأليفه.

ثالثاً – نظرية النحو من خلال المبادئ أو القواعد التي تُعدُّ أساساً يضبط تكوين الوحدات الداخلية بين الجمل والتراكيب، وتشتغل هذه النظريات الثلاث مع النص باعتباره كلاً متكاملًا، على الرغم من أنها تصفه في جوانب معينة، لكنها عموماً تلتقي لتتشارك مع النص في فاعلية فعله، ومضمون نصوصه، فينشأ من خلالها اتساق تواصلي تضمنه عناصر الربط اللغوي بين الأبنية النحوية، التي تبتغي تحقق استمرارية التواصل دون انقطاع، حتى يمتد بسياقاته نحو الأبنية الأخرى ليضمن انسجاماً في الدلالة والمعنى، فيضمن النص لنفسه نصية تجمع بين اتساق تواصلي وانسجام سياقي.

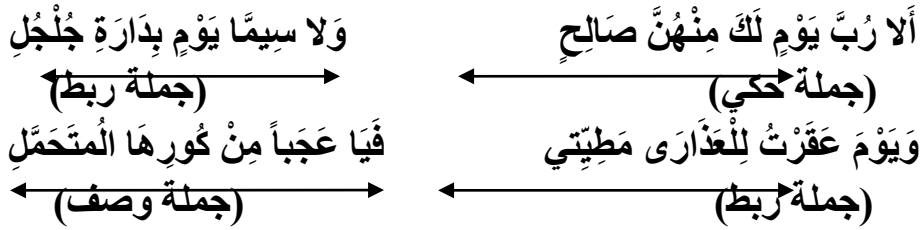
(أ)- نصية الاتساق التواصلي في المعلقة:

لما كان المفهوم اللغوي للغة يروم جانباً تواصلياً بين الباث والمتلقي، كان النص الوسيلة المعبر بها عن هذا التواصل بمجموع بناء الصوتية في علاقتها والدلالة، إذ يلتحق من خلالها الصوت بالمعنى، فتتلاحق الجمل في مداها الأقصى وفق شروط رابطة بين أبنية الصوت، وأبنية المعنى، فتتشأ الوظيفة التواصلية، وإنّ البحث عنها في معلقة امرئ القيس يقودنا أولاً إلى تتبع المزيج الجملي بين الأبيات في علاقتها ببعضها، كما نلاحظ في الأبيات الثلاثة الأولى من المعلقة، حيث يقول امرؤ القيس:⁽²²⁾

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْ مَلٍ
فَتَوَضَّحَ فَأَلْمَفَرَاةَ لَمْ يَعْنَفَ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ
تَرَى بَعَرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلُفْلٍ

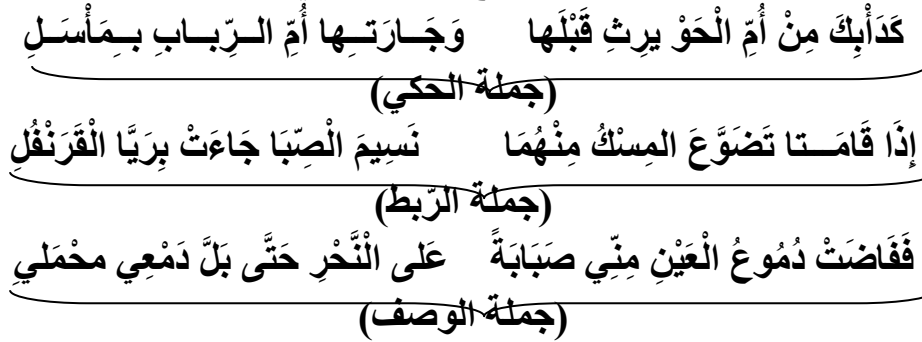
تقوم الأبيات الثلاثة على مزيج من الجمل، يتبنى فيه البيت الأول (جملة قصّ وحكي)، والبيت الثاني والثالث (جملة وصف)، فيما تقوم العلاقة بين جملتي، (الحكي، والوصف) على جملة أساسية رابطة بينهما هي جملة: (من ذكرى حبيب ومنزل) بمعنى أنّ جملة الحكي التي أبانت عن الدعوة للوقوف بكاءً ما كانت لتتم دلالتها مع جملة وصف الديار بمعزل عن جملة الربط السابقة، وإن وقعت في صدر البيت الأول إلا أنها أفضت إلى امتداد في الدلالة فتحقيق تواصل بين البيت ولاحقه، أو داخل البيت نفسه بين صدره وعجزه، وعلاقته بسابقه، على نحو ما تتمثله في البيتين التاليين:

يقول امرؤ القيس:⁽²³⁾



ما نلاحظه في البيتين أنهما تقاسما تركيب جملتين على مستوى الصدر والعجز، حيث شمل البيت الأول مزيج جملة حكي في صدره وجملة ربط في عجزه، وامتدت هذه الأخيرة لتتصدر صدر البيت الموالي، فتربطه بعجزه وقد شمل جملة الوصف، فنشأت بذلك وظيفة تواصلية بين جملة الحكي والوصف، أوحى أن اليوم الصالح هو يوم دارة جلجل، وهو نفس اليوم الذي عقر فيه الشاعر مطيته للحبيبات، «فَوَقَّعَ الرِّبْطَ بِوِاسِطَةِ جُودَةِ السَّبَكِ الْمُتَوَالِي لِلنَّصِّ قَدْ كُفِّلَ، أَيْ دُونَ أَنْ يَرِدَ خَلْلٌ فِي فَهْمِ النَّصِّ الْمُوَالِي»⁽²⁴⁾، فلو حذفنا مثلاً جملة الربط للاحظنا خلافاً في التركيب والمعنى، يتلوه خلل كبير في الفهم الموالي للنص، تتذبذب معه حلقة التواصل، فتتراءى موضوعات كثيرة وتتناوب مقاصد مؤولة، تُضعف النص وتُهلهل وظائفه التواصلية.

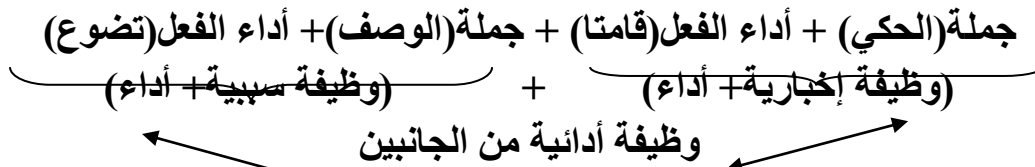
ولأجل الحفاظ على هذه الوظائف التواصلية يقترح البحيري تتبع علاقة الجملة الرابطة بين الجملتين، في علاقتها بسابقتها ولاحقتها، فيخلص إلى تحديد ثلاثة أنواع من الوظائف، أولها وظائف تواصلية موجهة يساراً في علاقتها والجملة المتقدمة، وثانيها موجهة يميناً، في علاقتها والجملة اللاحقة، وثالثها موجهة للجانبين موزعة بين الجملتين المتقدمة واللاحقة⁽²⁵⁾، ولتتبع إمكانية القبض على هذه الوظائف نقترح تمثيلاً لها في أبيات امرئ القيس⁽²⁶⁾ التالية:



في هذه الأبيات تتوسط جملة الربط جملتي الحكي والوصف، إذ تقتضي الوظيفة التواصلية من جهة اليمين البحث في علاقة (جملة الربط) بالجملة السابقة (جملة الحكي)، وقد امتدت هذه الأخيرة بسياقها الحكائي لتشكّل تماسكا أفضى إلى معنى ارتبط فيه ذكر الحبيبات بالاسم والكنية وقد تضرع المسك منهما، فتحققت الوظيفة التواصلية من جهتها اليمينية، نتيجة امتداد السياق اللغوي من البيت الأول نحو الثاني، وقد أدت هذه التواصلية وظيفة إخبارية، مفادها الإخبار عن رائحة الطيب الذي فاح وانتشر عند وقوف الحبيبات، أما الوظيفة التواصلية من جهة اليسار فتتصرف نحو تبيان العلاقة بين جملة الربط وجملة الوصف، إذ نلاحظ أن جملة الربط تقوم على شرط يمتد عبرها، من خلال التركيب الذي يضم أداة الشرط (إذا) وفعل الشرط (قامتا) وفعل جواب الشرط (تضوع)، ويُستأنف هذا التركيب نحو جملة الوصف

المالية، فيتحقق تعالق تواصل بين الجملتين منتجا وظيفة سببية؛ فشرط قيام الحبيبات وتضوع المسك كان سببا كافيا ليستحضر من خلاله الشاعر صورة جميلة أججت مشاعر الشوق لديه ففاضت دموع العين صباية، كما فاض طيب المسك وانتشر.

وإن نحن حاولنا تحديد طبيعة الوظيفة التواصلية من الجانبين، أي بين طرفي (جملة الربط)، فعلى أولنا تحديد العلاقة التي تربط الوظيفة التواصلية من اليمين باليسار، وقد خلصنا سابقا لتحديد وظيفتين اثنتين هما: (إخبارية، وسببية) توسطهما تركيب شرطي استند كليا على تأثير الأفعال الأدائية*⁽²⁷⁾ (قامت، تضوع) حيث يمتد أداء الفعل (قامتا) ليرتبط بوظيفة الإخبار عن قيام الحبيبتين (أم الحويرث وأم الرباب) وقد اقترن الفعل بألف الاثنين الدال على الفاعلية وتقديره (هما)، فيما يمتد أداء الفعل (تضوع) نحو جملة الوصف، على أن تربط بينهما وظيفة سببية تجعل من أداء فعل التضوع سببا لأداء الفعل (فاضت) الذي تصدرته فاء استئناف، فكان ذرف الدموع وفيض العيون بها النتيجة المحققة من تأثير أفعال الأداء (قامت، تضوع)، والتي نحددها وفق التمثيل التالي:



تقوم الوظيفة التواصلية من الجانبين على علاقة تشدُّ جملي الإخبار والوصف، ولو حذفنا فرضا جملة الربط (إذا قامتا تضوع المسك) للاحظنا انقطاعا بين جملي الإخبار والوصف، ناتج عن عدم تحقق أدائية تربط بينهما، وإن نحن حاولنا ربطهما بسياق لغوي يجعلنا نتصور مثلا أن سبب فيض دموع الشاعر هو تذكره للحبيبتين، يكون هذا التقدير أقل أداء من تأثير الأفعال الأدائية التي شملت جملة الربط، وبهذا التمثيل تتحقق الوظائف التواصلية بين الأبيات في كل اتجاهاتها لتصنع اتساقا تواصليا ضمنته العلاقات النحوية بين الأبيات من خلال ثلاث جمل: (جملة حكي) مشتملة على ضمائر إحالية أحالت على الحبيبات، و(جملة ربط) مشتملة على تأثير أفعال أدائية من الجانبين، و(جملة وصف) تشتمل على تحقق امتداد أفعال الأداء نحو نتيجة تصوّر حالة «الشاعر الجاذب إلى خلوته الشعرية والذي يصرخ صراخا حادا، أو يتهادى بالمسكوت المستثنى، فيغدو رهيبا مفارقا، كي يتأوه تأوها عجيبا، أو يئن أنينا جامحا، أو يسهد سهادا عميقا»²⁸ نحو مقصدية مفادها لوعة الذكرى في خيال امرئ القيس وقد أحالته ذكرى الحبيبات فقصدَ ذرفَ الدموع.

ب- نصية الانسجام السياقي في المعلقة:

كثيرا ما تجاوز الشعر حدود طبيعته بتأثيرات لغته المشحونة شاعرية، والتي غالبا ما تكشف عن إشارات ورموزه وبنائه اللغوي، فتتخطى بذلك الروايات التي أنهكتها شكا وتدليسا، فتقصي لغة الشعر يفضي إلى البحث في نظامه، ومنطقه، وبنيته بعيدا عن تأويلات سياقاته، فالقصيدة كيان يقوم على تراكيب وعلاقات ودلالات، وإن نحن سلمنا أن القصيدة العربية الجاهلية- التي أبانت أحيانا عن جزء من بنيتها الظاهرة السطحية من خلال مجموع الصور-

لا يجمعها رباط جامع غير الوزن والقافية، نكون قد ظلمنا هذا الإرث أي مظلمة⁽²⁹⁾، بل لابد أن نولي الاهتمام للبحث عن البنية العميقة التي تجمع شتات هذه الصور في إطار واحد، وإن لم يجمعها كلها، فستمتد وجودها من بُعد معين ما في هذه القصيدة، لذلك «يجب علينا ألا نخدع بهذا المظهر، ونسارع إلى تصنيف القصائد من خلال الوصف الظاهري»⁽³⁰⁾، الذي كثيرا ما يتجاوز البحث عن الأبنية اللغوية التي تشد مفاصل هذه المتناثرات.

وليست كل الأبنية اللغوية قادرة على وصف أجزاء الكلام وتبيان علاقته البينية في الجمل والتراكيب، وإن اهتم النحو التقليدي بنصيب من ذلك عندما تحرى السلامة النحوية من حيث التقسيم والإسناد، وصحة المكونات النحوية المباشرة، وملاءمتها للقواعد الصرفية بما يتوافق مع المعنى، لكنه عجز عن تخطي هذه الوحدة من الكلام، وفي معترك هذا العجز حلّ علم النص بديلا يبتغي تجاوز الجملة من خلال رصد الروابط العلائقية بين الجمل ضمن سياقها اللغوي وغير اللغوي، جاعلا من النص الوحدة الكبرى التي يصبو إليها، وتراءت «غايته القصوى في فهم أوجه الترابط النحوي المتجاوزة للجملة الواحدة إلى سلسلة طويلة، أو قصيرة من الجمل تؤلف نصّا محددا، فترتبط هذه الجمل بروابط تُوفّر للنص تماسكه الشكلي والمعنوي»⁽³¹⁾، وخاصة أن الملفوظ الكلامي باعتباره أداة للتواصل الإنساني لم يعد قادرا على وصف مناحي الكلام انطلاقا من النحو التقليدي، أو التوليدي التحليلي، وقد أبان دور الرّابط العامل عند التوليديين أنه لا يقتصر على التركيب النحوي على مستوى الجملة فقط، بل يمتد إلى السلسلة الكاملة التي تؤلف النص، وفي مزيج هذه المعطيات تنامت حاجة الملفوظ الكلامي للسياق التواصل الذي يؤدي فيه دوره⁽³²⁾، فيتفاعل النص بالسياق، ليمتد نحو مجموعة من الجمل تتوافق والملفوظ اللغوي الذي يحويها ضمن وحدة النص.

وإن في اجتماع السياق بالملفوظ من الكلام ما يحمله على نسج متواليه من الكلام، قد يختصرها الملفوظ، ويبسطها السياق ضمن عدد لا متناه من الجمل، لأنّ "الربط الدقيق والعميق بين الاستعمال وزيادة الفائدة هو الفارق الأول بين الحقيقة والمجاز، والذي يروم إصابة المعنى البين الواضح، الذي يضمن انتقالا مبررا يمكن الاستدلال في ضوئه عن كل غاية مفيدة"⁽³³⁾، نتيجة إدراك الملفوظ في الاستعمال، ومثال ذلك: يمكن النظر إلى لافتة مكتوب عليها (انتبه مدرسة) باعتبارها نصا يتألف من جملتين، الجملة الأولى تتصل بالفعل انتبه، والثانية تحمل المعنى المراد بالانتباه، وتقصد وجود مدرسة، فمرور أطفال، فوجود خطر... فمعرفة السائق بالسياق المصاحب وقوانين المرور تجعله يترث عندها، وقد فهم الرسالة التي تحملها اللافتة، نتيجة امتلاكه خبرة بالسياق المصاحب لفحواها، وهي علاقة سببية تُنتجها الخبرة من تفاعل الملفوظ بالسياق.

في مثال آخر لو كتبنا على ورقة جملة (قفا نبك) وعرضنا هذا النص على مجموعة من القراء لخلصنا في الأخير إلى تحديد نوعين منهم: نوع لا يملك أي خبرة عن الشعر الجاهلي ويجهل سيرورته وأشعاره وشعرائه، وهؤلاء من يبدو لهم النص يحمل جملة واحدة مفادها دعوة اثنين للبكاء، ونوع آخر -ممن تشرب بمدرسة مناحي الشعر الجاهلي، والاطلاع على

سياقاته- يرى أنَّ النَّصَّ يضم جملتين، جملة تدعو صاحب أو صاحبين أو الصاحب للوقوف، وجملة ثانية تدعو هؤلاء للبكاء على الأطلال ومنازل الدِّيار البالية، وكل ما يمكن أن يحزَّ في نفس الملك الضليل من أسى ولوعة وفراق وفقد، فسبقُ الإمام بسياق ملفوظ (قفا نبك) يُحمِلُ النَّصَّ من مزيج الجمل ما يتوافق وعلاقتها ببعض، لبسط تماسك دلالي.

إنَّ معرفة القارئ بسياقات الجنس الأدبي هو إحالة منه على جنسه، وإفراغٌ لمحتواه في قالب معين يضمُّ في صلبه بنية عليا للنَّصِّ، يتوخاها قارئ الشعر أوَّلاً كُلِّما أقبلَ على قراءة نص شعري، بل وجب عليه أن ينطلق من تصوُّر بنية عليا تؤطِّر جنس القصيدة، قبل حتى أن يدرك المعنى والدلالة، فشأن القارئ لمعلقة امرئ القيس، والمُطَّلَع على مناحي سياقاتها التاريخية والنفسية والأنطروبولوجية والاجتماعية، شأن النَّسَّاج الذي يحبكُ بين ما تهلهل من نسيجه، ويؤلِّف بين ما تباعد من خيوطه، لذلك كان النَّصُّ يصنع نفسه أوَّلاً كونه «إنتاج مباشر لعمليات الكلام، ويتشكل من جملة من الكلام والمداخلات، تتمنَّع فيه اللُّغة الأدبية بوضع فردي سوسيولوجي خاص، فتجعلُ من النَّصِّ الأدبي رسالة تأتلف من نظام محدد من المفاهيم والشفرات»⁽³⁴⁾، يُفكِّكها القارئ كل حسب خبرته، ليعيد ربطها بما توافق ودلالة بنيتها العليا، التي تتخذ من المركز موقعاً مناظراً لمجموع البنى الصغرى، التي تنشأ ضمن حيز جنسها الأدبي، كل ذلك يسري داخل نصية انسجام سياقي يكفل متابعة مجمل هذه العلاقات بما لا يتعارض والدلالة.

لذلك كانت حاجة الدَّرس اللُّغوي لعلم النَّصِّ أكثر بعدما تبين أنَّ «النَّحو على مستوى الجملة لا يقدِّم العلاقات بين الجمل بصورة كافية، كما يقدمها علم النَّصِّ، وكذلك الجملة تمثل الدلالة الجزئية لا الكلية، إضافة إلى أنَّ الجملة المجردة من السياق لا تقدم شيئاً سوى معان معجمية للكلمات الموجودة في الجملة، على حين الوحدة النصية في الغالب وفي وجود السياق تقدم الدلالة كاملة»⁽³⁵⁾، كما تقدمه الأبيات التالية لامرئ القيس في هذا المشهد، حيث يقول⁽³⁶⁾:

أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٌ وَلَا سِيماً يَوْمٍ بِدَارَةِ جُلُجُلٍ
وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّتِي فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمِّلِ
فُظِّلَ الْعَذَارَى يَزْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحِمَ كَهْدَابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَقِّلِ

إنَّ العلاقة الجوهرية للدلالة التي تجمع بين هذه الأبيات، تقوم على علم سابق بالسياق الذي نما فيه هذا التشكيل اللُّغوي، من خلال العلاقات الإشارية والإحالية والاستئنافية، التي تحيلُ على سياق حدث عند حدود دارة جلجل، أبان عن حالة ترفٍ يعيشها الشاعر وقد عقرَ مَطِيَّتَهُ للحبيبات، وإنَّ في إهمال مُستعمل النَّصِّ استكناه أشكال السياق، ما يجعل البيت الذي استقل بمعناه يضم معان معجمية لا يمكنها بأي حال ربط دلالاتها ببعض، بعدما تراءت إمكانية التقديم والتأخير بينها، لذلك وجب الإقرار بنصية الانسجام السياقي في فرض منطق الوحدة الدلالية.

وليس تقصيرا من الدرس اللغوي العربي القديم أن ينطلق من الجملة لصياغة قواعد استقرائه، وإثما حاجة التقعيد للغة أوجبت الانطلاق من الجزء نحو الكل، فيما يعرف بالاتجاه المعياري القواعدي، «وإن كان موقف البلاغيين غير موقف اللغويين، فقد انطلقت مباحث عديدة في علم البلاغة من منطق المعالجة النصية، مثل: الإيجاز، والفصل، والوصل وغيرهما»⁽³⁷⁾، وتعكس نظرية النظم عند الجرجاني(471هـ) عن إيلاء الدرس القديم نصيبا للممارسات النصية التي تشغل من اللفظ نحو المعنى، ومن المعنى نحو معنى آخر يليه ويتقدم عنه وصلا وفصلا، مجاورة واستبدالاً، تقديماً وتأخيراً، ذلك أن النظم عنده «أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها ببعض، ويشتد ارتباط ثلث منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس موضعاً واحداً، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع يساره هناك»⁽³⁸⁾؛ تكافؤ يفصح عن رصف ونسج وشد وإحكام، وعلم سابق بالسياق، فميلاد نص في اتساق وانسجام.

04- خاتمة:

من خلال ماسبق نخلص للنتائج التالية:

- على الرغم من الجدل القائم حول صعوبة قراءة النظريات الغربية لموروثنا القديم، استطاعت بعض القراءات المتأنية أن تفصح عن جوانب مهمة في تحليل الخطاب الشعري الجاهلي.
- أبان التحليل النصي للشعر الجاهلي عن بنية نصية جمعت بيت الأبيات المستقلة بنفسها، فامتد بها نحو وحدة كبرى هي القصيدة النص.
- كشفت الممارسة النصية عن نجاعتها في تقفي بعض مظاهر التماسك النصي، حتى داخل تلك النصوص التي تبدو مفككة.
- أفضت تتبع التماسك النصي للمعلقة عن وحدة خاصة، أبانت عنها كفاءة نصية توزعت بين إتساق تواصلية وانسجام سياقي.
- يمكن للدراسات النقدية المتجاذبة حد القول بوحدة البيت تارة والقصيدة تارة أن تستفيد من نتائج الدرس النصي لحسم بعض خلافاتها.

05- قائمة المراجع:

- (1) أحمد عفيفي، سها السطوح: تجديد الخطاب النقدي في ضوء علم النص، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط01، 2019، ص:12
- (2) فولفانج هاينه مان فيهر، تر: سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط01، 2004، ص:04.
- (3) روبرت ألان دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة مصر، ط01، 1997، ص:82
- (4) ابن الدريد أبو بكر بن محمد(ت321هـ): جمهرة اللغة، ج01، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر 1932، ص:103.
- (5) ابن منظور: لسان العرب، ج07، دار صادر بيروت، ط03، 1994، ص: 42-44.

- (6) ينظر: الزبيدي محمد مرتضى الحسيني (ت1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، مادة (نص)، ج01، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دت، ص:440، وينظر أيضا: أحمد رضا: معجم متن اللغة، ج05 منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، دط، 1960، ص:472.
- (7) ينظر: السيد أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، مكتبة عكاظ للنشر، الاسكندرية، مصر، ط01، 1981، ص:144-145.
- (8) ينظر: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين التنظير والتطبيق، ص:28.
- (9) عبد المالك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط02، 2010، ص:54.
- (10) ينظر نفسه ص:50.
- (11) ينظر: فاضل ثامر: اللغة الثانية (في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي) المركز الثقافي العربي، المغرب، ط01، 1994، ص:45.
- 12 ينظر: أحمد عفيفي: نحو النص، إتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط01، 2001، ص:98.
- (13) ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، دار نوبار للطباعة، القاهرة، مصر، ط01، 1997، ص: (أ) من مقدمة الكتاب.
- (14) ينظر: المرجع السابق ص:02.
- (15) ينظر نفسه ص04 إلى09.
- (16) نفسه، ص18.
- (17) ينظر: السابق الصفحات:18- و76 إلى81. حيث فهم إيزنبرج (H.isenberg) نظرية نصية تقوم على قواعد تناص توليدية ومعلومات إحالية، ووظائف إتصالية، ووضع قوندليش (D.wunderlich) نظرية نصية تستند إلى قواعد جزئية تداولية، وتبنى يانوس بتوفي (J.S. petofi) نظرية نصية تقوم على الوصف الكلي للنصوص، ومن خلالها أسس لنظريات جزئية نصية منفردة ومنفصلة، معتمدا على مبادئ النحو التوليدي، فانتهى إلى صياغة موسعة أطلق عليها بنية النص وبنية العالم، وسعى شميت (S.shmidt) إلى صياغة نظرية نصية تربط نظرية الاتصال بنظرية النص تحت مسمى (نظرية النظرية) تُعنى ببحث إنتاج النصوص وتلقيها، أما إيجور ملتشوك (Igor.Melcuk) فقد ربط النظرية النصية بالمعنى، باعتبار أن الانتقال بين المعنى والنص ينبغي أن يكون العملية المركزية للنموذج اللغوي.
- * - من بين الجهود العربية التي اعتمدت مقارنة النصوص من وجهة المعايير السبعة لـ: دي بوجراند/ دريسلار نذكر: محاولة الأستاذ سعد مصلوح تقصي معالم النصية في نص شعري قديم: تحت عنوان: نحو أجرومية للنص الشعر - دراسة في قصيدة جاهلية، وكذلك تجربة الاستاذ إبراهيم الخليل من خلال ما أسقطه على أنشودة المطر للسياب،
- (19) ينظر: روبرت ألان دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص:103-105.
- (20) ينظر: المرجع السابق، ص:107.
- (21) سعيد حسن بحيري: إسهامات أساسية، العلاقة بين النص والنحو والدلالة، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط02، 2010، ص:22-23.
- (22) امرؤ القيس، الديوان وملحقاته، بشرح أبي سعيد السكري (ت275هـ)، تح: أنور عليان أبو سويلم، ومحمد علي الشوابكة، المجلد01، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، ط01، 2000، ص:164-167.
- (23) نفسه، ص:178-180.
- (24) سعيد حسن بحيري: إسهامات أساسية، العلاقة بين النص والنحو والدلالة، ص:27.
- (25) ينظر المرجع السابق، ص:27. ملاحظة: استقى البحيري جهة هذه الوظائف من أعمال الباحث الألماني إيزنبرج، في تطبيقات على اللغة الألمانية، وعليه فجهة اليسار في العربية هي اليمين في الألمانية والعكس صحيح.
- (26) الديوان، ص:175-177.
- * - عبّر حسن البحيري عن الأفعال الواردة في الجملة الرابطة بالأفعال الأدائية التي تضمن الوظيفة التواصلية... ينظر: المرجع السابق، ص:39.

- 28 عبد الله بوقصة، القصيدة بين صفاء الإيقاع وصوفية اللغة- قراءة نقدية في ديوان فصوص التناهي والتجلي للشاعر ناصر اسطبول- مجلة سيميائيات، جامعة وهران، المجلد 09، العدد 01، 2019، ص 57.
- (29) ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف، منهج التحليل النصي مجلة النقد الأدبي فصول، جزء 01 مجلد 15، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، دس، ص: 117.
- (30) نفسه ص: 117.
- (31) إبراهيم محمود خليل: في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط01، 2007، ص: 215.
- (32) ينظر المرجع السابق ص: 215.
- (33) ينظر: عائشة برارت، القصيدة والاستعمال في الخطاب البلاغي بين الأصالة والإبداع – دراسة بينية- مجلة سيميائيات، جامعة وهران، المجلد: 18، العدد 01، 18 سبتمبر 2022.
- (34) المرجع السابق، ص: 215.
- (35) صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين التنظير والتطبيق- دراسة تطبيقية على السور المكية- ج01، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط01، 2000، ص: 49.
- (36) الديوان: ص: 178-180
- (37) صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين التنظير والتطبيق: ص50.
- (38) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، دس، دط، ص: 93.